تصفية حب ...

قصة بقلم نبيه غطاس

المحبة تتأنى وترفق ، المحبة لاتحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ
(بولس الرسول ـ كورنثوس ١٣)

انا لاأن لم اعلم كيف احببتك لفترة من الزمن ، بل لا افهم على وجه التحديد لماذا احببتك وباي دافع ، ماكانت بيننا يا انستي اية صفة مشتركة او عامل مشترك ، غير اني احببتك لهذه الفترة القصيرة بكل حواسي ، احببتك رغم محاولاتي ان اجدك وان افهمك وان اقوم الانسان الذي فيك .

احببت فيك جمالك ولكني لم اؤلهه كما كنت تؤلهينه . احببت فيك ذكاءك ولكني لم انفخ امامه بالبوق والمزمار كما كنت تفعلين . وكانتي كنت احيانا وللحظات قصيرة تصرفين ، وفي اللحظات هذه عندما كنت تدركين انك لست الها ولا نصف اله ـ بل انثى وحسب ـ كانت روحي تقترب اليك وتندمج بك وتتحد بك ، وكان ان احببتك .

اكاد اعدها على اصابع يدي تلك اللحظات . ولكنك اظهرت اثناءها من نفسك الانثى العاقلة كل مايحب وكل مايعشق . وسرعان ماكانت تنقلب النفس هذه لتتأله وتتحجر في صنم ، فتطمس كل انوثة رأيتها وكل ذكاء خبرته وكل جمال متعت ناظري به .

كنت تطلبين الدليل وراء الدليل على حبي لك . لابأس فتلك خلة في النساء معروفة ، ولكن شرط ان لاتطلبي هذا الحب كشرط ، كالتزام. الحب ياسيدتي غير مشروط ، الحب اندماج وتسامح ومساواة . من العبث ان يضع احد المحبين ذاته في قالب اله . الاله نفسه ـ لو تعلمين ـ صار انسانا عندما احب ، ولد كانسان وعاش ومات كانسان ، وبعد ذلك لافبل ، سموه الها . فبعض التواضع ياسيدتي ، وانتدي .

عجبا لذلك المنطق الذي كنت تهتدين به وبمقاييسه تسترشدين . كانت الهوة بيننا في اول العهد عميقة ، بعيدة الغور . كنت اعطيك الدليل وراء الدليل على حبي لك واعجابي بك ، ولكنك كنت كبئر بلا قعر ، لاتعرف الامتلاء ونظل تطلب المزيد ، حتى الله نفسه لايطلب ماكنت تطلبين ليمتحن عبده . اقصى ماطلبه الله من انسان هو ان امر ابراهيم الخليل ان يقدم ابنه اسحق ذبيحة ، والى الان لم يسلم من السنة الناس وخلال ثلاثة الاف سنة ظلوا يقولون عنه انه شرير .

انت ماطلبت مني ان افعل شيئا كهذا مرة ، كنت تطلبينه كل يوم ، كل ساعة ، كل دقيقة ، والبئر ما امتلات ، ابدا ماعرفت الامتلاء . صدقيني ان اية ذبيحة قدمتها لك لم اقدمها خائفا ولا مستعطفا ولا وجلا .ماكنت كابراهيم يوما طامعا في زعامة على الارض وخلود في السماء .

ذلك الجزء الذي احببته من شخصك حفزني على ان افعل ما افعل . ولكنني يا انستي رأيتك تطلبين المزيد ، انعود لقصة ابراهيم ثانية ؟ عندما قاد اسحق الى المذبح اطل الله من عليائه وقال له : « ولو ياشيخ، هل صدقت ! كانت مزحة . هاك ذاك الحمل واذبحه لينكسر سم غضبي واستنشق رائحته . وما بقي منه خذه الى عيالك . ولو ... » وعفا عن اسحق .

وبعد ايام واسابيع اضعناها في ردم الهوة السحيقة وملء البئر التي لاقعر لها ، قلت لي انك تحبينني واظهرت لي حقا انك تحبينني ، اتدرين كم كلفتني هذه النتيجة : هموم كثيرة دخلت الى قلبي ، ساعات طويلة قضيتها في الليالي افكر بك ، منازعات دائمة ماكنا بحاجة اليها ، صبر واحتمال لايعرفهما حتى القديسون .

وفي بعض الاحيان كنت اشفق عليك ، نعم ، ماصارحتك بذلك قبل الان ، رغم حبي لك كنت اشفق عليك لتلك النفسية المعقدة التي لاتعرف ماذا تريد ، فبيني وبين نفسي كنت اقول انك ورده رائعة لولا تلك الاشواك التي تغطي اديمك ، وانك نبع فياض لولا تلك الافاعي الصارخة في اعماقك ، وانك اله لولا رائحة الذبائح المدفقة من حولك. ومع هذا اشفقت عليك ، ترى كم اقمى كانت تصرخ في اعماقك لو كنت اظهرت لك اشفاقي وكم بركان كان يثور لو قلت لك انك مسكينة ! ولكني بدلت اشفاقي بحب فصارت عيناي لاتريان فيك الا بعضك الجميل ، البسيط ، العادي ، الساذج . واعلمي ياعزيزتي ان الحب لايعير بالسوء ولا يفاخر ولا يتجبر . الحب يتسامح وينعامى ويسمو بصاحبه .

مادام حبنا شيئا ومضى ـ ولا يدهشك ذلك ـ وما دامت صفحته قد انطوت فدعيني اقل لك ، لا مشفقا ولا حانقا بل ناصحا ومذكرا، ما الذي دق احر مسمار في نعش حبنا وماذا كانت اخر ضربة قطعت ذلك الخيط بيني بينك .

توفيق ، عفا الله عن توفيق .

منذ اليوم الاول الذي لقيتك فيه واسم توفيق يتردد على شفتيك ، قلت لي ، ونحن بعد في مرحلة تعرف الواحد منا بالاخر وتبادل اسرارنا الخاصة ، ان توفيق كان حبك الاول والاخير ، ورحت تشيدين لي به : بحبه لك واندفاعه وتضحيته . كل ذلك لم يثرني حسدا . كنت اصغي اليك لاتعرف اليك اكثر من خلال اصدقائك ومعارفك ـ ولو اني لم التق بهم ـ كنت اصغي اليك وانا لا اعلم أاعجب بك ام بتوفيق ام لا اعجب لابك ولا به ... ويقيني انك في الحديث عنه وعن حبه وتضحيته واندفاعه كنت تتخذينه « فترينة » تعرضين فيها نفسك . كان توفيق بروازا يحتوي اللوحة التي هي انت .

دام حبكما ثلاث سنوات ، تحية مني لتوفيق على طول اناته وصبره !

كم مرة جررته الى المحرقة وقلت له : هنا انحر اسحقك ، هنا احرق سماك ، هنا ذرذر نفسك رمادا ، لتبرهن لي على حبك . وتوفيق اطاع لانه احبك .

اذكر كل قصة رويتها لي عنه ونحن بعد في طور التعارف والصداقة . اذكر واحدة منها ، انك طلبت منه مرة ان يحرق ابهام يده بسيجارتك ففعل ، وابقى السيجارة على ابهامه مدة دقيقتين .. المغفل ، وكافأته عند ذلك بقبلة فوق خده .

قلت لي مرة ان شيئا واحدا لم يعجبك في توفيق : انه لايبكي ! فاشرت اليه من طرف خفي انك تريدين ان تريه باكيا ، ولما لم يفعل وضعت ذلك في برنامجك وصممت على ان يذرف دموعه ، اعز مايملكه الرجل . هددته وصددت عنه وعذبته ـ يا للمسكين ـ فبكى ، فلعقت الدموع من على خديه ، ولم تترد نفسك العطشى .

واخر ذبيحة طلبت منه ان يقدمها : قلت له ان يعود الى وطنه ويدرس في الجامعة او يلتحق بالسلك السياسي او يفعل اي شيء هناك ليحسن وضعه المالي والاجتماعي وليعود اليك بالذهب واللبان والمر . لماذا ـ ليكون مستحقا لك ، مستحقا لان يفك سيور حذائك وليكون كفؤا واهلا لحبك .

وهنا انقلب السحر على الساحر ، ورجع توفيق الى وطنه بعد ان تضايق من الهه الصغير وعاف سماه . رجع ولم يدرس في الجامعة

ولم يلتحق بالسلك السياسي ولم يغرف من كواير الذهب التي املته بها .

وانتقلت علاقتنا الى مرحلة اخرى واحب الواحد منا الاخر وظل شبح توفيق يلاحقنا : اراه في عينيك كلما جلست لحظة تفكرين ساهمة، اراه منتصبا بيننا كلما سرنا معا ويدك في يدي . كان يخال الي انك تقيسينني بمقاييسه وتهمسين في سرك : لينه يحرق يده ، ليته يبكي كتوفيق ، اذن لاحببته اكثر . ان ماسمعه منك عنه جعلني اشفق على كل توفيق واحقر كل توفيق واحطم اي جزء في يشبه توفيقك هذا.

لم اسمح لك بعد ذلك ان تذكري اسمه ، لا حسدا ولا غيرة ، فالاضام التي اعجبت بها رحت احطمها . واتهمتني اذ ذاك اني اغار حتى من اسمه وخياله . لا ياعزيزتي ، احببت ان تفهمي للحب معانيه الصحيحة وان تتخلي عن مفاهيمك البالية . مرات كثيرة قلت لك : « يا انستي ، لم يبخل توفيق بشيء ، اعطى وضحى ونحر وذبح وانسحق ، وانت ماذا فعلت من اجله ؟ اعطى فاخذت ، وهذه كل الصفقة : عطاء من جانب واخذ من جانب اخر . » لا ، الحب عطاء ، الحب تضحية ، ولكن من المحبين كليهما ، اما النحر والذبح والانسحاق ، فتعابير غير واردة في الحب لانها تعني العبودية والذل ، ليت الذين يعبدون الله يرتفعون عن مستوى العبودية والذل وعند ذاك يستطيعون ان يحبوه كما ينبغي ان كان ذلك مايريده .

عزيزتي ، سانهي رسالتي بعد قليل ، ولكن خذيها نصيحة لوجه الله : مازلت في عمر الورود ، فقلعي عنك الاشواك بل انزعيها ، انت جميلة ومثقفة وذكية ، كل هذا على الرأس ، ولكن يجب ان تفهمي ان الحب الحقيقي ليس الذي تعرفينه . انه اسمى من ذلك ، ان اعجبك اسلوب يهوه في الحب فاعلمي ان يهوه ماحب ابراهيم الخليل : كن سيدا وطاغية . خلقه ابراهيم وامثاله من الانبياء المحرفين على صورتهم ومثالهم .

ستنتهي علاقتنا هنا ، لا تكلفي نفسك الاجابة على هذه الرسالة . يوم افترقنا منذ شهر سالتني ان كنت ساكتب لك . قلت نعم ساكتب رسالة اولى وتجيبيني عليها . قلت « لا ، اكتب لي ثلاث رسائل قبل ان اجيبك » . وثرت في وجهك وصحت اني لااستجدي الحب استجداء . من انت حتى تظني اني توفيق اخر ..

ولهذا ومع هذا كتبت لك هذه الرسالة ، لا اريد جوابا عليها ، صدقي كل كلمة قلتها لك ، احببتك وكنت صادقا في اعلان حبي . غير اني اردت ان تتخلي عن كبرياء قاتلة ، عن انانية شريرة ، عن غرور مجنون. اردت ان تخنقي نارسيسوس ـ ذلك الاله الصغير الطائش الذي كان في اعماقك ـ معجبة انت بنفسك كما كان نارسيسوس معجبا بنفسه ودانخا بجماله ، حتى داخ بالفعل من التطلع الى صفحة الماء التي تعكس صورته ووقع في النهر ومات .

وصدقيني ايضا ان قلت لك انك لن تجدي توفيقا يناسب مقاييسك. افضل من هذا ان تغيريها ، ان تتعلمي كيف يحب الناس العاديون البسطاء بلا تعب ولا مشاحنات ولا قيود ولا ذبائح ، توفيق ، حبك الاول ... والاخير ، في مكان ما في بلاده الان يفتش عن فتاة عادية تحبه ويحبها دون ان يكون الحب لهما مصدر شقاء .

فاعتبري اذن ان توفيق مات بالنسبة اليك ، عندما تستلمين رسالتي هذه يكون توفيق قد مات مرة ثانية ، نعم مات مرتين ليحيا في غير هيكلك قد لاتسمح لك كبرياؤك ان تعترفي بالخطأ ، ولكنك ستفهمين يوما ،عندما يجيئك الخريف ويكتنفك الفراغ ويذوي الجمال ، ستفهمين من كان مسؤولا عن موت توفيق في المرة الاولى والثانية . وعند ذاك ستندمين. وعند ذاك ، ان مر احد بطريقك ستقبلين به كجائزة ترضية ، وستكونين ـ ياعزيزتي ـ كاله فاشل . فلا هو في السماء ولا في الارض .

اعذريني فهيكلك بارد ومليء بالفراغ ، ساترك فيه المباخر والمجامر والشموع لمن يحسن استعمالها بعدي . امامي رحلة اخرى ساقوم بها قبل ان تغيب الشمس .

نبيه غطاس

فهرس بالظهر

لقد ذوت كل الشفاه الطيبه
وروضنا ..
لم تبق فيه شفة لم تعتصرها التجربة
لم تبق فيه زهرة لم تفوها نحله
ولم تذب في رعشة القبله ..

* *

فما تكاد زهرة ان تولدا ..
غارقة بالدفء .. والنقاء .. والندى ،
حتى تمد للهوى يدا ،
وان تمادت .. تعتصرها التجربة .

* *

كل الشفاه هكذا ..
بلا ندى .. بلا شذى ،
لانها تفضل الندم :.
والدمعة السوداء في النهايه
على الصمود في عواصف الغوايه ..

* *

سدى .. سدى ..
نبحث عن واحدة بريئه
لم تعرف الخطيئه ..
فقد مضى ..
ـ يا رحمة ـ
عهد الشفاه الطيبه
وضاع في دوامة التحرر !..
والعصر .. والتطور ..
ولن تعيش عندنا
الا الشفاه المرة المجربة !

فايز صياغ